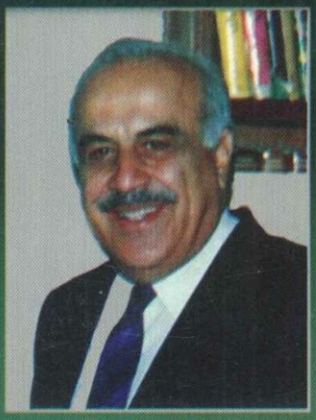

خالد القصاب

ذكريات فنية

ذكريات فنية

بقلم:

د. خالد عبد العزيز القصاب

تحرير

مي مظفر

دار الحكمة

لندن

حقوق الطبع محفوظة

- ذكريات فنية
- المؤلف : خالد عبد العزيز القصاب
- تصميم الغلاف : ناظم رمزي
- الطبعة الأولى ٢٠٠٧ .
- الناشر : دار الحكمة ـ لندن

ISBN 1 904923 45 3

88 Chalton Street, London, NW1 1HJ
Tel: 44 (0) 20 7383 4037 Fax: 44 (0) 20 7383 0116
E-Mail: al_hikma_uk@yahoo.co.uk

DAR ALHIKMA
Publishing and Distribution

88 Chalton Street, London NW1 1HJ Tel: 44 (0) 20 7383 4037 Fax: 44 (0) 20 7383 0116
E-Mail: al_hikma_uk@yahoo.co.uk Website: www.hikma.co.uk

المحتويات

تقديم : بقلم نجدة فتحي صفوة ٣
مقدمة : بقلم مي مظفر ١٥
الخطوات الأولى ١٧
عسكر من اسطنبول ١٨
غابة الملك ٢٢
البيت الصغير في العيواضية ٢٦
التطفل على شخصيته ٢٩
الينبوع ٣١
البولونيون في بغداد ٣٣
حكايات ذات مغزى ٣٥
سحر السماء وعبير التراب ٣٧
جبال شامخة وأكراد طيبون ٤٣
جاكلين ٥١
الفن في بغداد (١٩٣٠ ـ ١٩٥٠م) ٥٣
السيل الجارف ٥٩
البقاء بعد الرحيل ٦٠
ألف ليلة وليلة في سوق هرج ٦١

جواد في باريس ٦٣
جواد في بغداد أيام الحرب ٦٥
جواد بين الرسم والنحت ٦٨
جواد في لندن ٦٩
الصديق الجديد الغامض ٧٢
فكرة جريئة ٧٤
المعرض الأول .. نقطة بداية ٧٧
جماعة بغداد للفن الحديث ٨٠
النمو يتسارع ٨٨
الأيام الحلوة ٩٠
الضاحك الباكي ٩٣
جواسيس في سوق الصفافير ٩٧
اجازة في لندن ٩٩
مدينة الضباب ١٠١
وداعاً لندن ١٠٥
تأرجح الولاء ١٠٦
الرنيسانس في بغداد ١٠٨
الجراح الطائر ١٠٩
تأسيس جمعية الفنانين التشكيليين ١١٠
مهرجان الفن العراقي ١١٤
محاولات جادة لم تؤت ثمارها ١١٦
معرض انفرد في شموليته ١١٧
العمارة والرسم : زواج لم يدم ١١٩
الخزافون في بلاد الخزف ١٢٢
حفلة البالو ١٢٥
البركان ينفجر ١٢٧
معرض الثورة ١٢٩
لقاء في موسكو ١٣٢
مع عبد الكريم قاسم ١٣٤
عبد الكريم قاسم والفن ١٣٨
الزيارة الكئيبة ١٤١
المعهد ثم أكاديمية الفنون الجميلة ١٤٤
العناية بالتراث ١٤٧
ما الذي حل بالرواد ١٥٥

ملحق : حوار النخل والسدر ـ رحلة الفن والعلم ١٥٧
سيرة ذاتية : د . خالد القصاب ١٦٩

ملحق الصور ١٧٣
فهرس الأعلام ١٩١

قليل انضم الزوج (سيفر) إليهما ، وعرف منهما أخبار فائق ، وأجهش الثلاثة بالبكاء . بيّنت جاكلين استعدادها للطلاق من (سيفر) والزواج من فائق . فاستغرب إسماعيل من الفكرة ، ورفضها فائق أيضا . وفي عام ١٩٥١م ذهب فائق إلى باريس ، للمرة الأولى بعد انتهاء الحرب ، بدعوة من صديقه (روبير - غـيـومـار Robert Guyomard) ، المدير السـابق لمخـازن أوروزي باك في بغداد ، فالتقى جاكلين وسيفر ليودع غرامه إلى الأبد . لقد مات سيفر شابا في عام ١٩٥٤ ، مصابا بالسرطان ، ومن الغريب أن والد الفنان توفي أيضا من المرض نفسه ، وفي السنة عينها .

كان - غيومار قد دعا فائق إلى مصيف (لابيرنيري La Bernerie) على سـاحل (بريتـاني Bretagne) ، قـرب (سـان لازار St. Lazar) . وهناك تعرّف إلى (سوزان كوتيبه) ، ابنة صاحبة النزل (بانسيون) الذي أقام فيه . فتطورت العلاقة بينهما وانتهت بزواجه منها عام ١٩٥٣م ، ومجيئها إلى بغداد في عام ١٩٥٤م .

كان مجيء سوزان إلى بغداد نقطة انعطاف حادة في نمط حياة فائق وعلاقته بأصدقائه . فقد أصرّت عليه ، أولا ، أن يترك بيته في العيواضية ، ويبني بيتا جديدا . كما أنها لم تتفهم الجو الذي كان يحيط بفائق ، ووصفت اجتـمـاعات جـمـاعـة الـ(S.P.) الصـاخـبة وأعـضـاءها بأنهم مـتـوحـشـون (Souvage) ، فأبعدته عنهم ، واستأثرت به . وحين أكمل فائق بناء بيته الجديد في (الصليخ) ، انتقل إليه مع سوزان ، وكان بيتا جميلا وكبيرا ، تحيط به حديقة واسعة ، لكنه كان يفتقر إلى حرارة الحياة التي طبعت بيته في العيواضية . وبغياب الأصدقاء ، أصبح البيت كالدير المهجور لا يدخله أحد .

لقد أصرّت سوزان على إزالة كل ما يربط فائق بماضيه . وركّزت بصورة خاصة على صورة (بورتريت) جاكلين الجميلة ، وهددت بحرقها . أخذ فائق

اللوحة الجميلة إلى تلميذه المبدع وليد شيت ، وطلب منه المحافظة عليها لكي لا تحرقها سوزان .

مرّت الأيام ، ونشفت الدموع ، وتلاشى بيت العيواضية الصغير ، ولكن الصورة الجميلة تلك بقيت في قلب كل من دخل البيت العتيق إلى الأبد ، صورة جاكلين .

الفن في بغداد (١٩٣٠ - ١٩٥٠م)

هناك حدث فني واحد يمكن الرجوع إليه في ثلاثينات القرن الماضي ، وهو الجناح الفني في «المعرض الزراعي الصناعي» (١٩٣٣م) ، الذي افتتحه الملك فيصل الأول . عُرضت الأعمال في بناية بالقرب من باب المعظم كانت متميزة بطابعها الشرقي وبالفسيفساء التي تحيط بأبوابها وشبابيكها . وهي البناية التي شغلتها وزارة الخارجية ردحا من الزمن .

زرت هذا المعرض وأنا طفل صغير ، فلم يثر اهتمامي إلا الأفعى المخيفة التي كانت محفوظة في صندوق زجاجي . لم أدرك آنذاك ما احتواه الجناح من أعمال رسم لعبد القادر الرسام والحاج محمد سليم وناصر عوني وسعاد سليم ، إلى جانب أعمال نحتية حاز على الجائزة الأولى فيها فتحي صفوة ، وهو أول من عرف من النحاتين العراقيين . كما منحت الجائزة الثانية في النحت إلى صبي من تلاميذ الدراسة المتوسطة يدعى جواد سليم ، عن تمثال للملك فيصل الأول . كما عرض هذا النحات الصغير رسوما بالألوان المائية توضح الجلوس بالشكل الصحيح ، في الوقت الذي رسم فيه صديقه عيسى حنا طريقة الجلوس بطريقة مغلوطة .

عقب المعرض الصناعي الزراعي هذا غرقت الحركة الفنية في سبات عميق ، ربما كان سببه غياب الفنانين المهمين للدراسة في أوربا . فقد مُنحت

زمالات دراسية في عام ١٩٣١م إلى أكرم شكري ، وإلى فائق حسن في عام ١٩٣٥م ، وإلى عطا صبري وحافظ الدروبي في ١٩٣٧م ، وإلى جواد سليم في ١٩٣٨م . وعاد معظمهم لدى اندلاع الحرب العالمية الثانية في أيلول ١٩٣٩م ، وليبعثوا الروح في الحركة الفنية وسط دمار الحرب .

في شباط من عام ١٩٤١م ، اجتمع عدد من الفنانين في دار أكرم شكري ، وقام كل من أكرم وعيسى حنا وكريم مجيد بتقديم طلب إلى وزارة الداخلية لتأسيس جمعية باسم (أصدقاء الفن) . شملت الجمعية في عضويتها ، كما يدل إلى ذلك اسمها ، الرسامين والنحاتين المعماريين ومحبي الفن . إذ كان كريم مجيد مخرجاً إذاعياً لأحد برامج الأطفال ، ودرويش الحيدري أخصائياً بارزاً في الزراعة ، وقد أسند الجمعية مادياً ومعنوياً . إن توسع الجمعية في عضويتها قد يكون فكرة نبيلة في الأساس ، ولكنه أيضا كان السبب في حل الجمعية عام ١٩٤٨م . وهناك صورة فوتوغرافية لمؤسسي جمعية أصدقاء الفن التقطت في دار الحاج محمد سليم ، والد جواد ، الكائنة في منطقة الفضل ، يظهر فيها في الوسط عبد القادر الرسام وشوكت الخفاف ومحمد سليم وفتحي صفوة ، ومن حولهم : عطا صبري ، وحافظ الدروبي وعيسى حنا وسعاد سليم وجواد سليم وصبري الخطاط والمعماريين مدحت وسعيد على مظلوم وجعفر علاوي .

انتخب أكرم شكري أول رئيس للجمعية ، وناهدة الحيدري سكرتيرة ، وعيسى حنا أمينا للصندوق . وأقامت الجمعية ثلاثة معارض ، كان الأول في تشرين أول ١٩٤١م ، والثاني في ١٩٤٣م ، والثالث والأخير في ١٩٤٦م . وقد شارك في هذه المعارض : عبد القادر الرسام ، العضو الفخري في الجمعية ، وعيسى حنا وعزرا حيّا ورشاد حاتم وحافظ الدروبي وجواد سليم . واشترك فائق حسن في معرضيها الثاني والثالث بلوحات زيتية كان قد

رسمها في رحلة مشتركة مع عطا صبري إلى الشمال . وعرض عطا صبري صورا تمثل (اليزيدية) في منطقة (سنجار) . وظهرت في المعرضين الأخيرين بعض اللوحات المنفذة بأسلوب (التنقيط) الذي كان يتبعه الفنانون البولونيون الذين مروا في بغداد (١٩٤٢ - ١٩٤٣م) .

كان لجمعية أصدقاء الفن دور مهم في تاريخ الفن المعاصر في العراق خلال ظروف الحرب العالمية الصعبة . فبالإضافة إلى المعارض ، نظّمت الجمعية سلسلة من المحاضرات الثقافية . ثم تفككت جمعية أصدقاء الفن إثر خلاف نشب بين أعضاء هيئتها الإدارية . فقد أصر أكرم شكري وناهدة الحيدري على الطلب من ممثل معروف وزوجة شاعر تقديم وثائق حسن سلوك من المراجع الأمنية ، الأمر الذي عارضه كل من جواد سليم وعيسى حنا وعطا صبري بقوة ، وأكدوا عدم التعرض إلى القناعات السياسية والاتجاهات الفكرية للأعضاء .

ولعل من المناسب هنا أن أذكر ملخصا عن سيرة بعض البارزين في جمعية أصدقاء الفن :

■ **أكرم شكري** (١٩١٠ - ١٩٨٢م) . كان أشقر ، حسن الخلق ، هادئ الطباع ، منطوياً على نفسه . كان قليل الكلام ، وإذا ما تكلّم فجمله قصيرة ذات مقاطع حادة تعبّر عن مواقفه الصلبة . كان أكرم أول من أوفد لدراسة الفن في بعثة رسمية إلى إنكلترا عام ١٩٣١م . عمل مديرا للمختبر الفني في المتحف العراقي لمدة طويلة[1] . وكان لهذا المختبر دور مهم في تدريب الكثير من الفنانين وتعريفهم بتراث العراق الموغل في القدم . وممن عمل أيضا في هذا المختبر آنذاك : خالد الرحال وعيسى حنا وجواد سليم وعطا صبري وغيرهم . وكان من حسن الحظ أن يكون على رأس مديرية الآثار العامة

١ - عمل في هذا المختبر من ١٩٣٦ إلى ١٩٦٣م .

الأستاذ ساطع الحصري ، المعروف بثقافته الواسعة وشخصيته المنفتحة ، قد طلب من جواد سليم العمل على ترميم المنحوتات الآشورية . كما قدم الحصري مراجعا مهمة من مكتبته الكبيرة ، مشددا على منمنمات الواسطي وطلب من جواد سليم وعطا صبري وحافظ الدروبي ، أن يستنسخوا عنها لوحات كبيرة ، وأن يتعرفوا إليها . كما كان لأكرم شكري دور كبير في تأسيس جمعية أصدقاء الفن . وقد أصبح فيما بعد عضوا مؤسسا لجمعية الفنانين التشكيليين عام ١٩٥٦م ، ونائبا لرئيسها في عامها الأول .

ثم اختفى (أكرم شكري) الفنان الهادئ تدريجيا من الساحة الفنية حتى سمعت خبر وفاته عام ١٩٨٢م . خرجت مسرعا متوجها إلى بيته في المنصور آملا أن أرى حشدا من الفنانين في تشييعه . فلم يكن في البيت غيري أنا والمؤرخ المعروف عزيز الحجية . انتظرنا خارج الدار لمدة ساعتين ولم يصل الجثمان . فتركنا المكان . وهكذا اختفى أكرم ضحية عزلته التامة .

كانت الأعمال التي عرضها أكرم شكري قليلة ، ذات أسلوب أكاديمي في معظمها ، إذا ما استثنينا ما عرضه في مهرجان الفن العراقي (١٩٥٦م) بعد رجوعه من زمالة اليونيسكو إلى المكسيك ، حيث قدم لوحات مرسومة بخطوط لامعة من مادة (البيروكسلين) . وكان أكرم مسؤولا عن المعرض العراقي الذي نظمته اليونيسكو في بيروت عام ١٩٤٩م ، حيث قال النقاد عن الجناح العراقي فيه إنه كان متميزا ، وكان الوحيد الذي احتوى على فن حديث ، وخصوا بالذكر فائق حسن وجواد سليم[1] .

١ ـ يعد هذا المعرض الذي نظمته اليونيسكو أول معرض ضم تجارب فنية عربية ، وقد سرق الفنانون العراقيون الأضواء فيه ، وكان فنهم مثار أسئلة ما زالت تطرح : ما السر في حيوية الفن العراقي وإبداع فنانيه . وتجدر بالإشارة أن المعرض أقيم في عام ١٩٤٨م ، تبعا لنزار سليم في كتابه «الفن العراقي المعاصر ، وزارة الإعلام في العراق ١٩٧٧م) ، كما ورد أيضا على لسان الدكتور عبد العزيز الدوري ، أمد الله في عمره ، الذي رافق المعرض ، ونقل لي شخصيا

■ **عطا صبري** (١٩١٣ ـ ١٩٨٧م) : كان رساما جادا ومثابرا . ولد في أول نيسان من عام ١٩١٣م في كركوك ، وهو ابن الرسام إحسان فهمي ، خريج الكلية الحربية في إسطنبول . كان عطا أنيق الملبس ، أسود الشعر ، له شاربان كثّان يخفيان شفته العليا . وكانت له طريقة خاصة في لف ربطات عنقه ذات الألوان البسيطة من غير أن يعقدها من الأعلى .

درس عطا فن الرسم في أكاديمية الفنون الجميلة في روما (١٩٣٧-١٩٣٩م) . ثم حصل على دبلوم فن في كلية سليد في لندن (١٩٥٠م) . درّس الرسم في المدارس المتوسطة ، وكان من طلابه عيسى حنا وجواد سليم ونوري مصطفى بهجت . كان له حضور دائم في المعارض التي أقيمت في حقبة الأربعينات . إنه رسام طبيعة من الطراز الأول . تميّز أسلوبه بضربات فرشة جريئة كان يغطي بها قماش اللوحة بخطوط ألوان طرية وبضربات سميكة سريعة . وكان لعطا الفضل بتأسيس معهد التراث الشعبي في عام ١٩٨١م وأصبح مديرا له . وقد نجح هذا المعهد في تشجيع الفنون الشعبية بجميع أشكالها ، كما فسح المجال للهواة ، وأقام دورات تدريبية خاصة . وتوفي عطا صبري في الثالث من كانون الثاني من عام ١٩٨٧م .

■ **حافظ الدروبي** (١٩١٤ ـ ١٩٩١م) ولد في بغداد . كان رساما نشيطا كثير الإنتاج . جسمه عضلي يميل إلى القصر/ وكتفاه عريضان . كان في شبابه رياضيا مهتما بكماله الجسماني . وكان شعره كثيفا حالك السواد ، يصففه بعناية مستعينا بالدهون اللامعة فيجعله سطحا مكورا أملس .

انطباعات زوار الجناح العراقي . م .

كان حافظ مرح الطباع . وكان كلما التقى جوادا ينطلق معه بثرثرة إيطالية مرددا أغاني العوام في نابولي . فقد درس في أكاديمية الفنون في روما عام ١٩٣٨م ، وعاد بعدها إلى بغداد لدى اندلاع الحرب العالمية الثانية . ثم أكمل دراسته في كلية ـ ولد سميث في لندن عام ١٩٤٦م . كانت رسومه الأكاديمية ، حال عودته من روما ، شاهدا على طاقاته الفنية . ولكنه اتجه بعد ذلك إلى الحداثة ، فكان يجزّئ لوحاته إلى مساحات لونية صغيرة ، تفصلها خطوط مستقيمة ، وهو أسلوب خاص به .

يعود الفضل لحافظ الدروبي في فتح أول مرسم حر لجميع الفنانين في الباب الشرقي عام ١٩٤٢م . وهو من أسس جماعة الانطباعيين من طلبته في الجامعة عام ١٩٥٤م . وتبوأ حافظ مناصب فنية مهمة ، فقد أصبح رئيسا لجمعية الفنانين التشكيليين ، كما أصبح عميدا لكلية الفنون .

وعلى الرغم من طبيعة حافظ المرحة ، فقد كان مبتلى بأوهامه المرضية . ولي معه حكايات طريفة ، هذه واحدة منها : في ليلة برد قارص ، وفي الثالثة صباحا ، أفقت من نومي على الجرس المزعج للهاتف . كان حافظ على الخط ، وسألني باضطراب : «استيقظت الآن مرعوبا من حلم مخيف ، وجدت نفسي فيه داخل زورق تعصف به الأمواج ، وأنا أعاني الآن من دوار وغثيان ، فما العمل؟» . أجبته : «هل لديك حبوب (دراماين) ، تلك التي تستعمل لدوار البحر؟» قال نعم . قلت له : «إذن خذ واحدة منها» . وبعد مرور ساعة ، في تمام الرابعة ، أيقظني مرة أخرى سائلا : «صرت زين بعد الحباية فماذا أفعل الآن؟» قلت له : «إنك تشكو من تعب نفسي ، فاذهب إلى طبيب مختص غدا» . وبعد ساعة ، أي في تمام الخامسة صباحا ، رن جرس الهاتف للمرة الثالثة ، وسألني حافظ هذه المرة : «من ترشح من الأطباء؟» وهكذا ضاعت

عليّ الليلة من غير نوم وجعلتني متعبا نفسيا ومحتاجا أنا الآخر إلى طبيب متخصص أسوة بحافظ[1] .

السيل الجارف

بعد أن حقق فنانو حقبة الأربعين (من القرن العشرين) ، أصدقاء الفن ما حققوه ، جاءهم سيل جارف اكتسحهم ووضعهم على الهامش . كان السيل الجارف قد نبع أولا من الينبوع ، حيث أصل الأشياء كلها ، معهد الفنون الجميلة في بغداد . فقد دفع بخريجيه الأوائل عام ١٩٤٥م . ومع توالي السنن ظل المعهد يدفع بالعشرات من الخريجين غيرهم إلى الساحة الفنية ، ثم المئات والألوف .جمهور ضخم من الفنانين ذوي المستوى الجيد ، بدءا بالآباء ثم الأبناء والأحفاد ، أقاموا صرح الحركة الفنية المعاصرة في العراق . والفضل الأول في ذلك يعود إلى الأساتذة الأوائل ، إلى العمالقة ، فائق حسن في الرسم ، وجواد سليم في النحت . وكان من حسن حظي أن أكون صديقا حميما لهذين الفنانين ، ولا أدري إن كنت مبالغا في تقييم أهميتهما في مسيرة الفن المعاصر ، أو أنني انحرفت عن الموضوعية والحياد . وفي حقيقة الأمر ، ظل اسم فائق وجواد في مقدمة ما كتبه النقاد خلال النصف الثاني من القرن الماضي .

عند اختفاء دور (جمعية أصدقاء الفن) ، وجد معظم فناني تلك المرحلة أنفسهم في معزل عن التيار الرئيسي لمعهد الفنون الجميلة ، وسلك كل منهم مسلكه الخاص . فانطوى أكرم على نفسه وقلّت مساهماته حتى تلاشت تدريجيا . وابتعد عطا صبري عن صديقه القديم فائق حسن ، بل أصبح

١ ـ توفي حافظ الدروبي في مطلع عام ١٩٩١م وكانت حرب الخليج الثانية ما زالت مشتعلة ، وطغت أصوات الحرب على نبأ وفاته ، ولم يشارك بتشييعه إلا القلة القليلة . م .

معرضا شخصيا لرسومه المائية في المركز الثقافي في سان فرانسيسكو بالولايات المتحدة الامريكية ، وحقق نجاحا كبيرا .

وهكذا فان انهماك خالد القصاب في المجالين الطبي والفني لم يكن احدهما على حساب الآخر ، فقد كان مبرزا في كليهما ، وستكون هذه المذكرات مرجعا مهما للاطلاع على مسيرة الحركة الفنية في العراق عبر مسيرة احد روادها ، وعلى جهود شخصية عراقية لامعة جديرة بالتقدير والاحترام .

انني حين اكتب هذه السطور لتقديم مذكرات صديقي الراحل العزيز خالد ، اشعر وكانني استعيد معه سنوات الرفقة والصداقة الطويلة التي سادتها المحبة ، ولم تشبها شائبة قط ، دون اية مصلحة مادية ، او علاقة عمل ومنافسة ، بل كانت نموذجا للصداقة الخالصة والاحترام المتبادل .

وفي الختام ارى من الواجب تسجيل شكري وتقديري للسيدة حنان ، زوجة صديقي العزيز خالد القصاب ،لاهتمامها الكبير بنشر مذكرات زوجها الراحل الكريم ، ومتابعتها تخليد لذكراه بوفاء جدير بالتقدير والاحترام ، وعلى تفضلها بتكليفي كتابة مقدمة لها لما تعرفه من علاقتنا الاخوية الوثيقة . والطويلة الامد . وقد كنت سعيدا وفخورا بتلبية طلبها وكتابة هذه المقدمة المتواضعة عن مسيرة صداقتي الوثيقة مع خالد ، وذكرياتي عنه ، معتزا بذكراه العطرة ، موجع القلب لفراقه . .

وسيبقى خالد خالداً في ذاكرتنا وقلوبنا . وستبقى ذكراه عزيزة بين اصدقائه ومحبيه واسرته وكل من عرفه من قريب او بعيد ، ومن انقذ حياته من مرضاه .

رحمه الله خالداً وأكرم مثواه . .

نجدة فتحي صفوة

مقدمة

عندما جلس الدكتور خالد القصاب ليدون مذكراته ، مستعيدا النشاط الفني من حياته الحافلة بالعطاء العلمي بوصفه واحدا من أمهر الجراحين العراقيين ، والثقافي لكونه شاهدا على مرحلة تأسيسية مهمة كان مشاركا فيها ، كانت بغداد تتراجع إلى الوراء ، إلى بدايات القرن العشرين يوم سقطت بيد المحتلين الإنكليز . فكأن قرنا من البناء والتقدم ما كان من عمرها ولا صار . لقد شبت النار من جراء أشرس احتلال عصري لتلتهم كل ما هو جميل فيها ، وامتدت الأيدي لتسطو على كل ثمين ونفيس من تراثها وتاريخها البعيد والقريب . إنه يقول : «في الوقت الذي أكتب فيه هذه المذكرات (حزيران ٢٠٠٣م) تزول عن بغداد المعالم الجميلة ضحية للقنابل الذكية والغبية» .

بأسلوب رشيق وحيوي يحملنا الدكتور القصاب إلى أجواء بغداد في النصف الأول من القرن العشرين ، وإلى أناس كانوا يسعون بكل نكران ذات لبناء بلد متقدم ينعم بالطمأنينة ويسر الحال . يومها كانت الروابط الإنسانية متينة ، والاندفاع نحو المعرفة والإتقان هاجس المثقف والمبدع . وبروح مسكونة باللوعة والأسى على وطن يتفتت وثروات تنهب بلا رحمة ودماء تسيل بلا انقطاع ، يلوذ بذاكرته هاربا من سواد اللحظة ، محاولا استرجاع جانب من وقائع تؤول للمحو . فأعطانا درسا بالتوثيق والروح الإنسانية المتسامحة لزمن لن يعود . لكن الذاكرة التي أجهدها خذلته ، وفلتت من بين أصابعه . فهذه المذكرات تتوقف عند عام ١٩٦٨م! وللطبيعة حكمة لا تدركها العقول .

يغوص خالد القصاب إلى أعماق ذاكرته ويمسك بخيوطها فيستعيد ملامح أحداث عايشها بملامسة ساخنة . إنه لا يذكر ذاته إلا من خلال حديثه عن الآخرين . فالجماعة ، كل فرد فيها ، هم أبطال هذه المذكرات ، والوطن هي الذات الطاغية . لقد أعاد الحياة لأشخاص لا يعرفهم سوى نفر قليل من المحيطين بهم ، أشخاص لم يتركوا تراثا يعين أسماءهم على البقاء ، فأنصفهم . ووضع هالة فوق رؤوس الذين بذلوا حياتهم من أجل رفع مكانة الفن والفنانين داخل المجتمع ، واستطاعوا بزمن قياسي أن يدفعوا العراق إلى مقدمة العالم العربي . وهم من رسّخ الأسس العريقة التي ما تزال الأجيال تتوارثها على الرغم من تغير الأوضاع والأحوال .

تتناول المذكرات الفنية للدكتور خالد القصاب نشأة فنون الرسم والنحت والخزف وتطورها ، كما تتحدث عن العمارة والعلاقة الوثيقة التي ربطت بين الفنانين والمعماريين . تحدث عن المشاريع العمرانية وعن دور النخبة المثقفة في الدعوة لإحياء التراث والمحافظة عليه ، جاعلا من الأحداث السياسية سلبا كانت أم إيجابا ، خلفية ملازمة لهذا التطور . وبذلك يضعنا أمام صورة متكاملة لحقب من تاريخ العراق الحضاري الحديث .

مي مظفّر

عمّان : كانون الأول ٢٠٠٥م

الخطوات الأولى

لم يكن لي من الهوايات ، وأنا طالب صبي ، إلا الشيء القليل . نشأت في عائلة محافظة لا تعرف الفن ، وفي وسط عام لا يشجع التعاطي به ، حتى دخل حياتي مدرّس الرسم في متوسطة الكرخ . بوجه خشن الملامح وشعر كث أشقر يميل إلى الاحمرار وحاجبين سميكين يعلوان عينيه الجاحظتين ، كان رشاد حاتم يسعى لتعليمنا بنشاط وحب كبيرين . دفعنا أمامه إلى مرسم كبير كان قد أسسه بالقرب من المدرسة لنعمل فيه بعد أوقات الدوام . لقد ترك رشاد حاتم إعجابا كبيرا في نفسي وحيرة أكبر . كيف تمكن أن يفتح هذا المرسم الكبير في وسط محافظ في صوب الكرخ ، في أواسط الثلاثين من القرن العشرين ، على أرض بكر جرداء لا تعرف الفن؟[1]

في ذلك المرسم عملنا بجد . كنا ننقل الصور من المجلات المعمارية مستخدمين الأقلام الملونة والفحم . ولدى انتهاء السنة الدراسية ، شاركت

١ ـ لقد أهمل مؤرخو الفن الحديث في العراق دور رشاد حاتم ، وبقي منسيا . لديه لوحات قليلة جدا في المتحف الوطني للفن الحديث (مع الرواد) في بغداد . ولعل تطرفه في مواقفه السياسية اليسارية ، وسجنه في نقرة السلمان (المعتقل الصحراوي المعروف) أثرا في اختفاء اسمه بوصفه فنانا موهوبا ومدرسا فاضلا . وقد أخبرني الفنان محمد غني أن رشاد حاتم علّمه الرسم في متوسطة الكاظمية عام ١٩٤٥م ، وعلّمه الارتباط بالوطن من خلال الفن . وحين كنت نائب رئيس جمعية الفنانين العراقيين في السبعينات (من القرن العشرين) ، اقترحت إضافة كل من رشاد حاتم وفتحي صفوت إلى أسماء رواد الفن العراقي ، وكرمناه بهذه المناسبة . خ . ق .

جلد من جدار الصدر إلى الوجه والرقبة ، فوجد أن هذه الفلاحة تستعمل ما رقعه من جلد الصدر حافظة للنقود ، وقد ملأته بالقطع المعدنية .

بعد أيام قليلة من وصولي إلى لندن ، وجدت صورة (ماثيو بانكس) على الصفحات الأولى من الجرائد ، وكلمات مكتوبة بالخط العريض «الجراح الطائر : تقبض عليه دوائر الجمارك وهو يهرّب الذهب في طائرته الخاصة» .

تأسيس جمعية الفنانين التشكيليين

فكّر أفراد الفصائل والجماعات الفنية بضرورة تأسيس جمعية شاملة تمثل جميع الفنانين من رسامين ونحاتين وخزّافين ومعماريين تكون أهلا لتمثيل هذا الوجه المهم للفن والثقافة والفكر الحديث ، والذي تمتد جذوره إلى ما قبل التاريخ ، ولإقناع الدولة بأهمية هذا الوجه الحضاري الجديد وضرورة رعايته .

باهتمام وحماس ، لبّى الجميع دعوة الدكتور خالد الجادر للاجتماع في داره يوم ٧ تشرين الثاني ١٩٥٥م لبحث النظام الأساسي لهذه الجمعية . وقد حضر الاجتماع معظم الفنانين التشكيليين في ذلك الوقت ، ثم تكرر هذا الاجتماع في دار كل من جواد سليم وخالد القصاب[١] .

كان الدكتور خالد الجادر (١٩٢٤ ـ ١٩٨٨م) ذا سحنة سمراء وقامة متوسطة ، يغطي رأسه شعر كثيف أشعث كالح السواد ، ولا تفارق وجهه ابتسامة تنم عن حزن عميق لازمه طوال حياته . كان مثالا للرسام المستقل ، يعمل بجد في مشغله (الاستوديو) الخاص به . لم يعرض مع أحد ، وكانت

١ ـ حضر الاجتماع الأول للجمعية : عالية القرغولي ، نزيهة سليم ، أكرم شكري ، جواد سليم ، فرج عبو ، زيد صالح ، قحطان المدفعي ، رفعة الجادرجي ، خالد الجادر ، يوسف عبد القادر ، نوري الراوي ، محمد مكية ، كاظم حيدر ، إسماعيل الشيخلي ، محمود صبري ، نوري مصطفى بهجت ، خالد القصاب . خ . ق .

حياته مغلقة بعيدة عن الجميع . اهتم برسم الطبيعة والقرى الفقيرة والأكواخ المتداعية بألوان رمادية معتمة ، وبمشتقات السواد . وفي تصويره للوجوه (البورتريت) ، كان يستخدم ألوانا أكثر إثارة وطراوة . درس الحقوق في بغداد ، ونال الدكتوراه بتاريخ الفن من جامعة (ليل) في فرنسا[١] . درّس في جامعة بغداد ، وكان محبوبا من طلبته . كما كان له موقع كبير بين أساتذة الجامعة . ولعل لخلفياته القانونية والأكاديمية أثرا في مبادرته بتشكيل جمعية الفنانين (١٩٥٦م) ، وفي تأسيس أكاديمية الفنون (١٩٦٢م) . وقد درّس الفن في المغرب والسعودية (حيث توفي هناك) .

تمخّضت الاجتماعات عن وضع النظام الأساسي لجمعية الفنانين العراقيين ، والتي حوّر اسمها في وقت لاحق ، باقتراح من باهر فائق الدبلوماسي وصديق الفنانين ، ليصبح «جمعية الفنانين التشكيليين» لتمييزها عن الفنون الأخرى . وانتخب المجتمعون من بينهم لفيفا يقوم بتقديم الطلب الرسمي إلى وزارة الداخلية لتأسيس الجمعية[٢] . ونشرت جريدة البلاد في عددها الصادر في ١١ كانون الثاني ١٩٥٦م خبر موافقة وزارة الداخلية بقيام الدكتور محمد مكية ورفاقه بإنشاء جمعية باسم «جمعية الفنانين العراقيين» . وكان أن تزامن ولادة الجمعية مع مأساة العدوان الثلاثي على مصر .

ثم دعت الهيئة المؤسسة الهيئة العامة للاجتماع في النادي الرياضي

١ ـ ورد في كتاب «الفن العراقي المعاصر» لنزار سليم أن خالد الجادر نال الدكتوراه بتاريخ الفن الإسلامي من (البوزار) في باريس بدرجة شرف ، وقبل ذلك در س في معهد الفنون الجميلة في بغداد حين كان طالبا في الحقوق . م .

٢ ـ شملت المجموعة : د . محمد مكية (معماري) ، عالية الفرغولي (رسامة) ، نزيهة سليم (رسامة) ، قحطان المدفعي معماري) ، أكرم شكري (رسام) ، خالد القصاب (طبيب ورسام) . خ . ق .

الملكي في الأعظمية لانتخاب الهيئة الإدارية ، فحضر الاجتماع ٣٦ عضوا ، وكانت نتيجة الانتخابات كما يلي :

فائق حسن ٢٧ صوتا ، خالد القصاب ٢٥ صوتا ، قحطان المدفعي ٢٥ صوتا ، محمد مكية ٢٤ صوتا ، إسماعيل الشيخلي ٢٣ صوتا ، جواد سليم ٢١ صوتا ، أكرم شكري ٢١ صوتا . وتستمر الأعداد بالتنازل حتى تصل إلى صوت واحد . وقد احتفظت بأوراق الانتخابات لمدة تقارب نصف قرن اعتزازا بتلك المناسبة العزيزة .

وانتخبت الهيئة الإدارية من بين الذين حصلوا على أعلى الأصوات ، وتوزعت المناصب بينهم كما يلي :

الدكتور محمد مكية : رئيسا .

أكرم شكري : نائبا للرئيس .

خالد القصاب : سكرتيرا عاما .

إسماعيل الشيخلي : أمينا للصندوق .

الأعضاء :

فائق حسن .

جواد سليم .

قحطان المدفعي .

وكان لوجود معماري[1] رئيسا للهيئة الإدارية الأولى ، ومعماري آخر

١ ـ أضاف الدكتور محمد مكية الكثير إلى جهود الجمعية في سنتها الأولى . وقد عرف باهتماماته بالفنون التصويرية والمعمارية في الحضارة الإسلامية . وكان لوجوده بين شباب الهيئة الأولى تأثير جيد أمام رجال المسؤولية في الدولة لما له من احترام في أوساطها . ولجهوده الفضل في الحصول على وعد من الوزير خليل كنة لمنح الجمعية أرضا بمساحة عشرة آلاف متر مربع بالقرب من مطار المثنى . كما كان لقحطان المدفعي ، المعماري الآخر في الهيئة ، الفضل في

عضوا فيها ، وطبيب سكرتيرا عاما أثر ملائم لرتق الخلافات بين العناصر المتنافسة ، ودافع للجميع للعمل تحت مظلة واحدة .

خرجنا من الانتخابات ونحن لا نملك مقرا ولا فلسا واحدا . اقترحت على جماعتي أن نستخدم بيتي ومشغلي في : ٢٥٦ شارع القصّاب- كرادة مريم ، مركزا مؤقتا للجمعية . كان البيت الصغير مناسبا . إنه الأستوديو الذي كان الرواد يجتمعون فيه دائما ، وهو مجاور للبيت الأبيض الذي أقمنا فيه معرض الرواد الأول عام ١٩٥٠م . بقيت هذه الدار مقرا للجمعية لمدة سنتين .

انتشر خبر تأسيس الجمعية بسرعة بين الأوساط الشعبية والرسمية . وأذكر في تلك الأيام كيف اتصلت بي السفارة البريطانية تخبرني بوصول السياسي العمالي المخضرم (أنوريان بيفان ١٨٩٧-١٩٦٠م Aneurin-Nye-Bevan) الذي اشتهر بتنظيمه النظام الصحي الوطني عندما كان وزيرا للصحة في حكومة (أتلي Clement Attley) بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥-١٩٥١م) . قالت السفارة إن المستر (بيفان) هو في طريق رجوعه من الهند ، وسيبقى في بغداد لمدة يوم واحد ، وقد فضّل أن يقوم أثناء ذلك بالطيران فوق المشروع الزراعي لمجلس الأعمار في اللطيفية ، والاتصال بالفنانين العراقيين بوصفهم مؤشرين للتقدم الحضاري في العراق . فنظمت اجتماعا لبعض الفنانين مع المستر (بيفان) في بيت جواد سليم ورفض فائق حسن الاجتماع به ، قائلا : «كودن هذا منو؟» وقد سمعنا بعدئذ أن المستر (بيفان) شكا الفنانين إلى نوري السعيد رئيس الوزراء ، قائلا له : «خذ حذرك من الفنانين ، فقد لاحظتهم متذمرين من الأوضاع العامة» .

تصميم مبنى جميل لها تطوعا . وهو اليوم نقطة داله في بغداد عند مدخل منطقة المنصور . وافتتحت بناية الجمعية في عام ١٩٦٢ ، بعد بعض التغيير في منطقة الأرض المخصصة لها . خ .ق .

وفرج عبو . وسار خلف السيارة مشيا على الأقدام عميد معهد الفنون الجميلة وأساتذته والشاعر محمد مهدي الجواهري والفنانون وطلاب المعهد . وكان شكري المفتي ، معاون عميد المعهد ، قد اتصل بشباب الأعظمية لاستقبال الموكب استقبالا يليق بما يستحقه من احترام .

غابت الشمس الحمراء خلف الأفق ، وبقي لحن الكيتار الأخير يرن طريا في أذني ، لم يذو مع السنين بل ظل يحكي لي قصة عبقرية نادرة انتهت بعد عمر قصير ، ذهبت ولن تعود .

المعهد ثم أكاديمية الفنون الجميلة

كان تدريس الفن التشكيلي قد بدأ عام ١٩٣٩م في المعهد الموسيقي الذي تأسس في بغداد عام ١٩٣٥م ، وسمي بعد ذلك بمعهد الفنون الجميلة . ولم أكن يوما طالبا فيه بل كنت زائرا مواكبا له وعاشقا لجوه الحر ولأساتذته وطلبته . كان الدوام فيه مسائيا في البداية أتاح المجال للكثيرين من الهواة من طلبة الكليات والموظفين الراغبين بدراسة الفن . ثم أضيف إليه في وقت لاحق قسما صباحيا لتهيئة مدرسي فنون للمدارس العامة . وكان اختيار أساتذة المعهد يتم على أساس ما لديهم من قدرات فنية فقط ، ولا يشترط في اختيارهم أن يكونوا من حملة شهادات عليا . كان فائق حسن قد ترك الدراسة من الصف السادس الابتدائي ، وجواد سليم طالب في الثانوية ، وكلاهما عملاقان في فنهما وثقافتهما ، أجادوا في تدريسهم لا بالمحاضرات الأكاديمية ، بل بعرض ما لديهم من براعة للطلبة كنموذج يحتذى به .

وفي عام ١٩٦١م أنشأت كلية سمّيت أكاديمية الفنون الجميلة ، تابعة لجامعة بغداد ، تخضع لقوانينها وأنظمتها . فكان الطلبة يُختارون من خريجي الدراسة الثانوية . أما أعضاء الهيئة التدريسية فكان شرطا أن يكونوا من حملة

شهادة الماجستير والدكتوراه[١] . وترقيتهم من مرتبة إلى مرتبة يعتمد على ما يقدمونه من بحوث شأنهم شأن ما يتبع في الكليات الأخرى في الجامعة . أبدى الدكتور خالد الجادر ، عميد معهد الفنون الجميلة آنذاك ، نشاطا كبيرا في تأسيس الأكاديمية ، ورفدها بأحسن الأساتذة .

تخرجت الدورة الأولى من الأكاديمية في حزيران عام ١٩٦٥م ، وكان من بينهم : إبراهيم العبدلي وليلى العطار وسالم الدباغ وخضر جرجيس ، من فرع الرسم ، وودود حمودي وخالد عزت من فرع النحت . وأبقى الدكتور خالد الجادر على حرية اختيار الطلبة من خريجي الثانوية دون النظر إلى نتائج معدلاتهم في البكلوريا ، شرط أن يجتازوا اختبارا صعبا في مجال الفنون التشكيلية . لكن الأمور تغيرت بعد ثورة ٨ شباط ١٩٦٣م ، وأخذت منحى سياسيا فاعتبر عميد أكاديمية الفنون الجميلة الجديد ، حافظ الدروبي ، أن الكلية وطلابها يساريون . فحاول الإقلال من شأنها ، وسماها (أكاديمية الفنون العليا الملغاة) . ووقف إلى جانب الدروبي في التقليل من شأن الأكاديمية الفنان عطا صبري ، الذي نسّب ، بحكم موقعه الإداري ، جميع خريجي الأكاديمية للتدريس خارج بغداد .

ومنح حافظ الدروبي الأكاديمية صفة كلية ، كباقي كليات الجامعة ، يكون اختيار المتقدمين لها خاضعا لمعدل درجاتهم في امتحان البكالوريا ، بغض النظر عن طاقاتهم ومواهبهم الفنية . كما اختير أعضاء الهيئة التدريسية والأساتذة من بين حملة درجات الماجستير والدكتوراه في تاريخ الفن ، فكيف يستطيع تدريس الألوان لطلبة الأكاديمية وهو بعيد عنها . لم يكن هناك تعليق

---

١ ـ حين تولى الدكتور عبد العزيز الدوري رئاسة جامعة بغداد ، أصدرت رئاسة الجامعة قرارا بمنح كبار الفنانين العاملين في الأكاديمية درجات علمية استنادا إلى خبراتهم وكفاءاتهم العالية ، كما حدث مع فائق حسن وإسماعيل الشيخلي وحافظ الدروبي وغيرهم . م .

أشد سخرية من ذلك الذي قاله الفنان البولوني (أرتوموفسكي) ، الذي كان في السابق أستاذا في معهد الفنون الجميلة ، عندما زار بغداد : «رجعت لأرى الأكاديمية تعج بالدكاترة وكأنها مستشفى» . واستهزأ أيضا من امتلاك بعض الأساتذة سيارات مرسيدس حصلوا عليها بموجب قانون الكفاءات[1] .

وسمعت النحات محمد غني يقول : «يريدون مني تقديم بحوث للترقية إلى مرتبة الأستاذية . أنا نحات أعرف كيف أضرب فأسي بالصخر ، فما هي البحوث التي يريدونها ، وكيف لي أن أفارق فأسي» .

استدعتني عمادة الأكاديمية عدة مرات لرئاسة لجان المناقشة لنيل درجة الماجستير أو الدكتوراه في الفن ، وذلك لأن لجان المناقشة تتطلب أن يكون أحد أعضائها برتبة أستاذ ، وأنا أحمل أيضا هذا اللقب في كلية الطب ، فضلا عن كوني رساما . لقد ضقت ذرعا بهذه اللجان ، واعتذرت عن المشاركة فيها . كانت البحوث المقدمة سطحية جدا ، والطلاب لا ملكة لهم في أي لغة أجنبية تساعدهم على التوسع في المراجع ، ويعتمدون على أدبيات محلية وهي محدودة جدا ، كالجرائد المحلية ومنشورات النقاد القليلة . وزاد من موقفي السلبي نجاه هذه اللجان ، شعوري بأن من سيحمل هذه الدرجات الأكاديمية سوف تفتح أمامه أبواب التدريس في الأكاديمية دون النظر إلى مهاراته الفنية .

حضرت يوما دعوة للسيدة سعاد خليل إسماعيل ، وزيرة التعليم العالي (آنذاك) وزوجها داوود سلمان علي رئيس الدائرة العلمية في الوزارة وعميد كلية الطب سابقا ، في دارهما المطلة على دجلة في (الصليخ) ، احتفاء بزيارة (برايان وندايز Sir Brian Windeier) نائب ملكة بريطانيا في رئاسة

١ ـ قانون صدر في مطلع السبعين يمنح كل أستاذ من حملة الشهادات العليا حق امتلاك سيارة مرسيدس بسعر مقطوع قدره ٢٠٠٠ دينار . م .

جامعة لندن (Vice Chancellor London University) وكان ضمن المدعوين حافظ الدروبي عميد أكاديمية الفنون . وكنت أعرف عن الدكتور (وندايز) أنه طبيب مشهور في جراحة السرطان . فانتهزت فرصة وجوده لأسأله أمام الدروبي : «هل تخضع كليات الفن ومدارسه للأنظمة والضوابط التي تخضع لها باقي الكليات في جامعة لندن؟» . فكان جوابه : «لا ، طبعا ، لأن من الضروري أن يكون تدريس الفن حرا وغير محدد بالضوابط الأكاديمية» .

العناية بالتراث

مع النمو الحضاري للمدن العراقية وتوسعها ، شاع بين الطبقة الواعية شعور بضرورة المحافظة على تراثنا العريق ، وتثبيت مواقع الأبنية والصروح التاريخية ، لإنقاذها من معاول الهدم وقسوة الجرّافات (البلدوزرات) . وبدأت فكرة تأسيس جمعية خاصة للحفاظ على التراث من المطعم الذي أنشأه المعماري قحطان عوني في منطقة السنك ، في بناية قديمة جذابة من أواخر القرن التاسع عشر . كان لهذا المبنى شرفة مسقفة تطل على دجلة ، ترتكز على أعمدة تتماسك بأقواس منتظمة ، وكانت تسمى قصر (الباليوز) أي قصر القنصل أو المعتمد البريطاني لدى الوالي العثماني في بغداد ، وكانت البناية المجاورة دائرة الكمارك سابقا .

وفي شباط ١٩٦٥م انتقل المهندس قحطان عوني بفكرته إلى بيت على طريق الأعظمية ، جدد أعمال الخشب فية ، وبشبابيكه المزينة بالزجاج الملون ، وطابوقه البغدادي الأصيل وباحته البغدادية (الحوش) . وفي هذا المطعم الجميل انبثقت الهيئة المؤسسة لجمعية تعنى بالمحافظة على التراث مؤلفة من : نيّرة منير عباس (ربة بيت تعنى بالتراث) وسالم الدملوجي (طبيب)

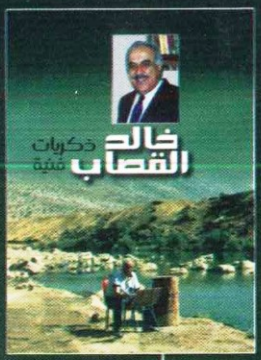

DAR ALHIKMA
Publishing and Distribution

88 Chalton Street
London NW1 1HJ
Tel: 44 (0) 20 7383 4037
Fax: 44 (0) 20 7383 0116

Email: al_hikma_uk@yahoo.co.uk
Web site: www.hikma.co.uk

ISBN
1 904923 45 3